

دليل التربية والتعليم في القرآن/ ج (1)



1- المربي الأكبر: قال تعالى: (اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) (الصافات/ 126). التطبيق الحياتي: يُعرّف الرب بأنّه المتكفّل بمصلحة الموجودات، وأنّ ربوبيّته (ملكه، وتدبيره، وقيمومته وإنعامه) تمتدّ للناس جميعاً من قبل ومن بعد؛ لأنّها لا تختصّ بقومٍ لشمول خلقه ورعايته، وإشرافه وتدبيره. والرب الذي (يملك) الشيء (يصلحه)، وهو الذي يُنشئ الشيء حالاً فحالاً حدّ التمام، فأيّ شيء نستفيد كمربيّين من مثلنا الأعلى في التربية؟ أوّلاً: إنّنا يجب أن لا نكتفي بما نملك، بل لابدّ من أن نُصلح ما نملك ونرفده ونُعزّزه. ثانياً: رعايتنا يجب أن لا تقتصر على صنف الذرّية دون صنف، ثالثاً: إنّ إعاله أسرتنا وحدها ليست كافية، بل لابدّ أن نتكفّل بمصلحة مَنْ يلوذ بنا من الأبناء والبنات. رابعاً: أن نهدف من وراء تربيّتنا لهم أن نصل بهم إلى مراقي الكمال ما استطعنا. إنّ تربية الإنسان لنا هي تربية ممتدّة مع الحياة، وخير ما أدّبنا به تعالى هو أن نتخلّق - جاهدين - بأخلاقه؛ لأنّ ذلك هو منهج التربية الذي تربيّ عليه الأنبياء (ع). وإنّ معنى التربية مشتقّ من (الربوبيّة)، وهي العناية بالمخلوقات فكلّ مَنْ هو تحت ولايتك - أباً كُنْتَ أم معلّماً، أم مسؤولاً في مؤسسة، أو رئيساً لدولة - أنت مسؤول عن تربيّته وتطويره وإنماء قابليّاته ومواهبه. 2- أصالة العمل: قال تعالى: (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَمَلَكُمْ مَكَانَ تَرَكُكُمْ إِنَّكُمْ إِِنَّ عَامِلُونَ...) (الأنعام/ 135). التطبيق الحياتي: على مكانتكم: أي على قدر منزلتكم وإمكاناتكم، وذلك هو خطاب الأنبياء (ع)

لأُممهم، أن لا يتوقّفوا عن العمل، وأن لا يستندوا في أعمالهم على النسب، فالنّبّي (ع) هو نفسه عمل وبلا هواده، سواء في حمل الرسالة أو أداء الأمانة أو توعية الناس وتربيتهم.

وأصالة العمل هذه تُعلّم المربيّين أن يُركّزوا على مفهوم القُرب من الله والبُعد عنه، فعلاقة ابن نوح النسيبيّة لم تشفع له في قبيل عمله غير الصالح، فكان من المغرقيّن. ولذلك تجد أنّ النبي (ص) يُركّز المفهوم في أذهان المقرّبين منه، حيث خاطب ابنته فاطمة (ع)، وعمّتة صفيّة، وبني هاشم قاطبة، بالقول: "اعملوا على مكانتكم إنّي عامل، ولا يقُولنَّ أحدٌ إنّني قريبٌ من رسول الله"، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لو عصيت لهُويت! فليس ثمة امتيازات ولا محسوبيّة ولا منسوبيّة ولا قرابة بين أحد وبين الله، ولن توزّع الجَنَّة والنار يوم القيامة على أساس (الأنساب)، بل على ضوء (الأعمال) المستنده إلى الإيمان.

ويقول الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) لشيعته الذين رجحت بهم الأمانى طائفتين أنّهم بانتسابهم إليه سيدخلون الجنّة: "ليس بيننا وبين أحدٍ قرابة، إنّ وليّ الله مَن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً"، وأنّ عدوّ الله مَن عصاه وإن كان سيّدًا قرشيًّا!! ولا تنفع الشفاعة إلّا بإذنه. 3- تصحيح المفاهيم وتعميقها: قال تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّكَ لَآتٍ بِكُمْ مِنْ أَهْلِكَ لَا يَسَعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُبَدِّلَ صَوْرَتَهُ وَلَكِنْ يَبْدُو عَمَلُهُ غَيْرُ ذَلِكَ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (هود/ 46). التطبيق الحياتي: من وسائل التربية التي اعتمدها القرآن الكريم هو أن يُصحِّح المفاهيم المغلوطة والمتداولة عُرفاً أو المحدودة قيمةً، فإن نوح ليس من أهله الذين هم أهل الإيمان، ولأنّه كان عاصياً فالتقويم أو المعيار في العلاقة معه هو علاقته بالله قرباً وبعداً. والبرّ ليس تولية الوجه قِبَلَ المسجد الأقصى أو البيت الحرام للصلاة، بل هو الإيمان والتقوى ورعاية المساكين من الناس والوفاء بالعهد والصبر في جميع الأحوال، وليس هو إتيان البيوت من ظهورها، ولكنّه تقوى الله بما في ذلك إتيان البيوت من أبوابها، لا بيوت السكن فقط، بل باب كلّ علاقة أو حرفة أو عمل، أي أنّ كناية عن التنظيم أيضاً. إنّ مشكلة موسى (ع) مع قومه، وهي مشكلة جميع الأنبياء، هي أنّ المفاهيم التي كانوا يحملونها غير المفاهيم التي كان يحملها: يدعوهم إلى الجنّة ويدعوهم إلى النار، أو على حسب تعبير الإمام علي (ع) في مخاطبته لرعيّته: "أريدكم الله وتريدوني لأنفسكم!! وهذا درس في تربية الأمّة، فما لم ترتفع فأفكارها وعواطفها وسلوكها إلى مستوى أهداف قياداتها الرشيدة والصالحة، قعدت بها مفاهيمها الهابطة والمتخلّفة، كما أنّ من أساليب القرآن التربوية تركيزه على رصد الخطوات العمليّة لأيّ تجربة، والتعرّف على الملامح الخطأ والصواب فيها، لمعالجتها من الموقع نفسه، ليلتقي المسلمون بالمفهوم في حركة الواقع عندهم. فمفهوم النصر عند الله هو أن تُعدّ الأمّة أساليب النصر ومقدّماته، وليس هو أن تجلس في بيوتها وتدعو الله أن يُنزل عليها النصر كما

أنزل على بني إسرائيل (المن والسلوى) في التّيه. مفهوم النصر - كما يُثبّته القرآن - هو: (إِنْ تَذَوُّرُوا اللَّاهَ يَذَوُّرُكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ) (محمد/ 7).

والمجال لا يتسع لاستعراض أو استقرار هذا الأسلوب التربوي الراقي في القرآن، وإنّما هي إشارات نشير إليها. 4- مواجهة التحدّيات: قال تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران/ 173). التطبيق الحياتي: هذا مثل حيّ لكلِّ حالة تحدّي يتعرض لها الإنسان كحالة خاصّة، أو يتعرض لها المجتمع كحالة عامّة، فالهروب من المشكلة - كما يُقال - لا يُساعد على حلّها، بل يُفاقم تعقيدها، ولذلك فإنّ (الفرار من الزحف) - كما مرّ - إنّما عُدد كبرى لأنّه هروب من التحدّي وليس مواجهةً له، والفرار من المشكلة هو كالفرار من الزحف لا باعتباره كبرى، بل لأنّه انحناء أمام التحدّي. فليس (أبو سفيان) وحده الذي كان يُحشّد للنّيل من المسلمين، بل الأعداء في كلّ وقتٍ يُحشّدون للقضاء على الإسلام، ولكنّ الإسلام عمّر؛ لأنّه واجه التحدّي بالتحدّي والتهديد بالثبات، فلا بدّ من الإستعداد الدائم للمواجهة صغيرة كانت المشكلة أم كبيرة. وهذا النوع من التربية هو التربية بالمواجهة النفسية للحرب النفسية. قال تعالى في آيةٍ لاحقة: (إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَقَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَافُوا هُمُ الْوَخَّافُونَ) (آل عمران/ 175). وتجارب الإيمان الراسخ كثيرة وغنيّة في أنّ رُوحِيّته هزمت أساليب التخويف والترهيب، فالشعور بالإنتماء إلى الله، وبمعيّته، وبقدرته المطلقة، يُفرغ الداخل من عوامل الضعف والإنهزام، كواجهة نفسيّة، ويأتي الاستعداد أو الإعداد للمواجهة الميدانيّة كظهير لتلك المواجهة، لتعمل المواجهتان كواجهة واحدة بوجه أيّ تحدّيّات. 5- نفع الناس: قال تعالى: (وَأَمَّا مَّا يَذُفِّعُ النَّاسَ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد/ 17). التطبيق الحياتي: التفتّ بعض المفسّرين إلى التطبيقات الحياتية العديدة لهذه الآية التي تختزن في داخلها بُعداً تربويّاً يسري على كلّ نفع يقوم به الإنسان لنفع أخيه في الإنسانيّة، حتّى أصبح معيار الخيريّة في الإسلام مرهوناً بنفع الناس: "خيرُ الناس مَنْ نفعَ الناس". إنّ الزّبد لا يروي ضمّاناً ولا يسقي أشجاراً، فليس له من الاستعمالات الحياتيّة حظّ، أمّا الصافي فهو أصل الحياة. والزّبد هو الباطل المترف المستكبر العالي الصوت الفارغ المحتوى، أمّا الحقّ فقليل متواضع، لكنّه كبير المعنى ثقيل الوزن. والحقّ مستند إلى نفسه واعتباره منه، أمّا الباطل فيسترقّ اعتباره من الحقّ بتلبّسه بلبوسه، ولو فقدت البضاعة السليمة في الأسواق لوجدت مَنْ ينخدع بالبضائع المغشوشة؛ لأنّها ستنتلي عليه، كوّن المقارنة بين الفاسد والصالح مفقودة. والغاية التي تنتهي إليها الآية في

إحباطاتها ودلالاتها هي أنَّ بقاء أيِّ موجود مرتبط بمنفعته، وأنَّ الباطل ليس له القدرة على الاحتفاظ بنفسه، فقد يصل إلى مرحلة معيَّنة يُطرح فيها خارج المجتمع، ويُلقي به على الساحل مهملاً كما تلقي الأمواج بالزبد أو تطرده إلى الساحل وكأنَّها تقول له: أنتَ لست منَّا، أنتَ غريب عنَّا، ومَن هو ليس من جنسنا فمكانه ليس البحر، بل رمال الساحل أو ضموه. نفع الناس خُلِقَ رباني، سعيدٌ وفائزٌ مَن تخلَّق به. يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُجْءِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبِحَارِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة / 164).